المحاضرةالخامسة: نظرية الدولة: أطوارها الخمسة من النشأة إلى السقوط .

الدولة ليست كياناً مجرداً، بل هي **كائن حي** ينمو، يزهر، ثم يهرم ويموت. هذه الرؤية العبقرية هي ما قدمه ابن خلدون في نظريته عن أطوار الدولة. اليوم، سنقوم بتشريح هذا الكائن الحي الاجتماعي، ونتبع دورة حياته الكاملة من الولادة حتى الوفاة، عبر **خمسة أطوار** محكومة بقوانين اجتماعية صارمة.

(1) الإطار النظري: الدولة في الفكر الخلدوني

قبل الغوص في الأطوار، دعونا نحدد المفاهيم:

- **الدولة** عند ابن خلدون: "كيان سياسي واجتماعي يقوم على السلطة والملك، ويستند في ظهوره إلى قوة العصبية، ويهدف إلى تحقيق الاستقرار والعدل (نسبياً) ومنع التظالم."
- **الملك**": الغلبة والسيطرة، وهو غاية العصبية الطبيعية". أي أن قيام الدولة هو الهدف النهائي للعصبية القوية.

(2) أطوار الدولة الخمسة: التشريح الخلدوني

سنحلل كل طور من خلال ثلاث زوايا :**السمات الغالبة، العلاقة مع العصبية، الحالة الاقتصادية**.

الطور الأول: طور التأسيس والظفر (طور البساطة والقوة)

- **السمات:**
  - **الزعيم**": أول، قريب من رجاله، يشاورهم.
  - **السلطة**: تشاركية قائمة على العصبية.
  - **العدل**: سائد لأن الحاكم لا يزال يحكم بأخلاق القبيلة.
  - **الهمة**: عالية جداً، وشحذتها سنوات الكفاح.
- **العصبية**: هي **العمود الفقري** للدولة. الحاكم هو تجسيد للعصبية وقائدها. العلاقة عضوية وقوية.
- **الاقتصاد**: بسيط، يعتمد على الغنائم والموارد الأولية. الضرائب خفيفة.
- **التشبيه**: ك"الشاب في ريعان الشباب، قوي البنية، متحمس للحياة."

الطورالثاني: طورالاستبداد والانفراد بالسلطة

- **التحول الحاسم** :هنا ينتقل الحاكم من كونه "زعيم قبيلة إلى ملك دولة". يبدأ في التخلص من شركائه في العصبية، خوفاً على ملكه.
- **السمات:**
  - **السلطة** :يصبح الحاكم مستبداً، يحتكر السلطة ويبعد منافسيه.
  - **الإدارة** :يبدأ في إنشاء جهاز بيروقراطي وبناء جيش من الموالي والمرتزقة **للتخلص من اعتماده على عصبيته الأصلية**.
  - **الاستقرار** :تزداد هيبة الدولة واستقرارها الظاهري.
- **العصبية** :تبدأ **القطيعة** .الحاكم يفصل نفسه عن جذوره، ويضعف ارتباطه بأبناء عصبيته. تبدأ العصبية الأصلية في التآكل من الداخل.
- **الاقتصاد** :تظهر الضرائب النظامية لتمويل البيروقراطية والجيش الجديد.
- **التشبيه** :ك"الشاب الذي بلغ أوج قوته ولكنه بدأ يتعالى على أهله."

الطورالثالث: طورالفراغ والجمع (طورالترف والازدهارالظاهري)

- **السمات:**
  - **الترف** :يبدأ الحاكم وأعوانه في التمتع بثمار الملك. تظهر مظاهر البذخ والرفاهية.
  - **المشاريع العمرانية** :يبدأ في تشييد القصور والمباني الفخمة، وحشد الأموال لإنفاقها على مشاريع الرفاهية.
  - **الاستقرارالوهمي** :الدولة في قمة اتساعها وازدهارها الظاهري، لكنها في الحقيقة تستهلك رصيد قوتها الأصلي.
- **العصبية** :تضعف بشكل كبير. يستبدل الحاكم رجاله الأقوياء بموالين ضعفاء يُمَلِّقونه. يصبح الاهتمام بالشكليات والملذات بدلاً من شؤون الحكم.
- **الاقتصاد** :يصل إلى ذروة الإنتاج، لكن الضرائب تزداد لتمويل حياة الترف والمشاريع الكبرى.

- **التشبيه** :ك"رجل في منتصف العمر، يجمع الثروات وينعم بها، لكن لياقته البدنية تبدأ في الانخفاض."

الطورالرابع: طورالقنوع والمسالمة (طورالشيخوخة والجمود)

- **السمات:**
  - **الجمود** :يكتفي الحاكم بالمحافظة على ما أنجزه أسلافه، دون طموح للتوسع أو الإبداع.
  - **التبعية** :يصبح الحاكم تابعاً لتقاليد الدولة أكثر من كونه صانعاً لها.
  - **ضعف الهيبة** :تبدأ هيبة الدولة في التدهور، وتظهر التمردات الداخلية والتهديدات الخارجية.
- **العصبية** :شبه منعدمة بين النخبة الحاكمة. الحاكم يعتمد كلياً على الجيش المرتزق والأجهزة الأمنية للبقاء في السلطة.
- **الاقتصاد** :تبدأ الإيرادات في الانخفاض due to الفساد وثقل الضرائب، بينما تزداد النفقات.
- **التشبيه** :ك"رجل مسن، يفضل الراحة والسلامة، ويقاوم التغيير."

الطورالخامس: طورالإسراف والتبذير(طورالهرم والانهيار)

- **السمات:**
  - **الإسراف** :الحاكم وأعوانه يسرفون في الإنفاق على الملذات الشخصية، حتى مع تناقص الموارد.
  - **الفساد** :يعم الفساد أجهزة الدولة.
  - **الانهيارالاقتصادي** :تزداد الضرائب بشكل جنوني لسد العجز، مما يقتل النشاط الاقتصادي ويسبب السخط العام.
  - **الضعف العسكري** :يصبح الجيش غير قادر على الدفاع عن الدولة.
- **العصبية** :**الموت السريري** .لا وجود للعصبية بين الحكام، بينما تبدأ عصبيات جديدة (قبائل بدوية، متمردون) في الظهور على أطراف الدولة.
- **النهاية الحتمية** :تقوم إحدى العصبيات الجديدة، القوية والجائعة، بغزو الدولة العجوز وإسقاطها، لتبدأ دورة جديدة.

- **التشبيه** :ك"جسم هرم، منهك، ينتظر أي عدوى لتنهي حياته."

(3) القو انين الحاكمة للدورة الخلدونية

1. **قانون تآكل العصبية** :العصبية تبلغ ذروتها عند التأسيس، ثم تبدأ في التآكل التدريجي حتى تختفي.
2. **قانون الترف والانحلال**" :الترف غاية العمران، وهو مؤذن بفساده". الذروة تحمل بذور السقوط.
3. **قانون الأجيال الثلاثة** :غالباً ما تكتمل الدورة في ثلاثة أجيال (جيل التأسيس، جيل الترف، جيل الانحلال).
4. **قانون الاستبداد والانفصال** :يؤدي استبداد الحاكم إلى انفصاله عن قاعدته الاجتماعية، مما يضعفها ويضعفه.

هل لا تزال هذه الدورة تنطبق على دولنا الحديثة؟

لننظر حولنا:

- قد لا تكون العصبية نسبا بحتاً، لكنها تظهر في شكل **أحزاب سياسية، تحالفات، ولاءات أيديولوجية**.
- نرى دولاً تنشط ثم **ترهل** وتدخل في مراحل جمود.
- نرى كيف يؤدي **الفساد والإسراف** إلى انهيار اقتصادات دول.
- نرى كيف تظهر **قوى جديدة** (دول صاعدة، حركات متطرفة) على أنقاض دول فاشلة.

الدورة الخلدونية ليست قدراً محتوماً، بل هي **تحذير** .فهم هذه القوانين يمكن أن يساعد المجتمعات على:

- **تشخيص أمراض الدولة** في مراحلها المبكرة.
- **تقوية المناعة الاجتماعية** ضد داء الترف والانفصال.
- **إعادة إنتاج العصبية المدنية** القائمة على المواطنة والمصلحة العامة.

إن نظرية ابن خلدون تذكرنا بأن الدول، مثل البشر، تمر بدورة حياة. والفارق الوحيد أن بإمكان الدول، بعقلانية حكامها وإرادة شعوبها، أن **تؤخر طور الشيخوخة**، أو حتى **تتجدد**، بدلاً من انتظار دورية السقوط الحتمية.